من الأسرار البلاغية

في

آيات التوكل على الله

دكتور/ بغدادى ابراهيم الصحابى

مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بنين

بجرجا

من الأسرار البلاغيـــة

فى آيات التوكل على الله

لا ريب أن الهدف الأسمى ، والغاية العظمى من دراسة القواعد البلاغية هما الوقوف على اعجاز القرآن الكريم بحسن نظمـــه وروعة تراكيبه وجمال أسلوبه ، ومعرفة السبب الذى جعل العرب يقفون منـــه موقف العاجز المتحير ، وذلك يجعل الباحث والقارىء لأمثـــال هـــذه الموضوعات ينتقل من التقليد الى اليقـــين •

وقد تنوعت الدراسات البلاغية حول القرآن فهناك دراسات تعنى بدراسة سر بلاغى فى القرآن كله مثل « التقـــديم والتأخير » ، والفصل والوصل ، أو القصر ، أو الحذف والذكر ، أو التشبيه ، والاســـتعارة ، أو الكناية أو غير ذلك من بقيـــة المباحث •

وهناك مباحث عنيت بالنظم فى سورة واحـــدة من ســـوره من حيث تتبع جميع الأسرار البلاغية التى احتوتها السورة ، أو مجموعة من سور القرآن ، أو تتبع سر بلاغى واحد فى ســـورة من الســـور الطـــــوال •

وهـــذا لون جديد ومنبع الأسرار البلاغية وهو تتبع الأســـرار

المتعلقة بموضوع واحد فى القرآن كله ، وما أكثر الموضوعات التى انتشرت فى كتاب الله ـ تعالى ـ وما أكثر الأسرار البلاغية التى اكتنفت تلك الموضوعات وساهمت فى بيانها وايضاحها ، ومن تلك الموضوعات موضوع التوكل على الله الذى كثر ذكره وتعددت أغراضه واختلفت أساليبه ، وعلة ذلك اختلاف المقامات الداعية اليه .

الأمر بالتوكل

والله تعالى يأمر عباده المؤمنين بالتوكل عليه ويأمر رسوله ـ ﷺ ـ كذلك لأن العبد لا يملك لنفسه أو غيره شيئا فعليه بعد الأخذ بالأسباب أن يتخذ الله وكيلا لكى تتحقق المطالب لأنه تعالى هو مسبب الأسباب وكل ما فى الكون طوع ارادته ، ومنقاد له .

وقد جاء الأمر بالتوكل بصيغتين الأولى فعل الأمر والثانية الفعل المضارع المقترن بلام الأمر وسوف نرى أن الأمر بالتوكل وقع فى سياقات تتطلب هذا الأمر .

خطاب المفرد

ومعظم الأوامر التى خوطب بها المفرد عنى بها الرسول ـ ﷺ ـ وذلك فى مقامات ولأغراض مختلفة .

ومنها قوله تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا

غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعفو عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين »(١) .

قبل هذه الآية وردت آيات تدل على ما حدث يوم أحد من تفرق بعض الصحابة ومخالفتهم لأمر ـ النبى ﷺ ـ حيث غادروا بعض المواقع التى أمروا بالبقاء فيها تطلعا الى جمع الغنائم ، فبين الله تعالى هنا أنه قد رقق لهم قلب رسوله فجعله يلين لهم رغم ما حدث منهم وتقديم الجار والمجرور يدل على الاختصاص ، أى برحمة الله وحدها كان اللين لا بفعلهم لأن فعلهم يستوجب الغضب والمقت وكذلك فيه بيان لفضل الله على رسوله لأنه ـ تعالى ـ هو الذى صبره وحول غضبه الى رحمة ، واللين هنا لم يستعمل فى حقيقته وانما هو مجاز عن سعة الرحمة وشمولها لسائر أفراد الأمة ، التعبير بالفعل الماضى من قوله « لنت » يدل على ملازمة هذا الوصف له ـ ﷺ ـ والضمير فى لهم من الأفضل والأنسب أن يكون عاما لأنه المناسب لمقام التشريع ، والأمر فى قوله « وشاورهم » يحتمل أن يكون للوجوب أو الاستحباب والعزم هو الاستقرار على رأى معين فى فعل الشىء ، والتوكل المأمور به فى الآية ليس المراد به الحقيقة وانما هو مجاز وأريد به الشروع فى الفعل .

وقوله « فتوكل على الله » التوكل حقيقة الاعتماد وهو هنا مجاز فى الشروع فى الفعل مع رجاء السداد فيه من الله ... فالتوكل انفعال

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

عطى قلبى يتوجه به الفاعل الى الله ، وربما وافقه قول لسانى وهو الدعاء بذلك ، وبذلك يظهر أن قوله « فتوكل على الله » دليل على جواب « اذا » وفرع عنه ، والتقدير : فاذا عزمت فبادر ولا تتأخر وتوكل على الله ، لأن التأخر آفات ، والتردد يضيع الأوقات ولو كان التوكل هو جواب اذا لما كان للشورى فائدة ... ولو كان المراد حصول التوكل من أول خطور الخاطر ، لما كان للأمر بالشورى فائدة ، وهذه الآية أوضح آية فى معنى الارشاد الى التوكل الذى حرف القاصرون ومن على شاكلتهم معناه فأفسدوا هذا الدين من مبناه وقوله « ان الله يحب المتوكلين » لأن التوكل علامة صدق الايمان ، وفيه ملاحظة عظمة الله وقدرته ، واعتقاد الحاجة اليه ، وعدم الاستغناء عنه ، وهذا أدب عظيم مع الخالق ، يدل على محبة العبد ربه فلذلك أحبه الله(٢) . وبين الله لرسوله ولسائر أفراد الأمة كل ما يحتاجون اليه من ارشاد وتوجيه الى الصواب من القول والفعل علمهم كيف يتعاملون مع أعدائهم وقت الحرب وعلمهم كيف يكون موقفهم اذا ما طلبوا السلم ، أو مالوا اليه .

وذلك فى قوله « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم »(٣) .

الجنوح هو الميل والتعبير به أبلغ من التعبير بطلبه لأن الطلب قد يقع من غير رغبة — كأن يكون الغرض منه الخدعة أو الخوف أو

---

(٢) انظر التحرير والتنوير جـ ٤ ص ١٥١ — ١٥٢ .
(٣) سورة الأنفال الآية ٦١ .

الجبر ، أو المهادنة ، والميل يكون بالقلب ، والطلب قد يكون به وبغيره ويعنى ان استتم فيهم الرغبة الحقيقية ، والخطاب وان كان للنبى — ﷺ — فانه يدخل فيه كل مسلم فى أى عصر ومصر .

ومع التظاهر بالرغبة فى السلم من جانب العدو فلابد أن يكون المسلمون على حذر ولابد من الاحتياط بالتقوى ومراقبة أحوال العدو ، لذلك بعد ما أمره بالتوكل على الله ختم هذه بقوله « انه هو السميع العليم » أى أنه سميع لما قالوه أثناء المعاهدة وعليم بما فى قلوبهم من صدق أو خديعة ، وضمير الفصل يدل على القصر والحصر أى هو وحده الذى يسمع ويعلم ، وفيه ايماء للنبى — ﷺ — ألا يكتفى بالأخذ بالأسباب ولكن مع ذلك لابد من التوكل على مسبب الأسباب لأن هناك أمورا يخفق فيها الأخذ بالأسباب ولا يفيد معها الا التوكل .

لقد تظاهر الكفار على ايذاء النبى — ﷺ — فأمره الله — تعالى — أن يتوكل عليه وحده وألا يبتغى منهم أجرا مهما كان هذا الأجر وذلك فى قوله : « وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا »(٤) .

والتوكل هو الاعتماد على الله وحده ، والحى الذى لا يموت هو الله — تعالى — وظاهر الكلام الايان بالضمير لكنه النظم الكريم عدل عن هذا الى وصفين ثابتين لله وهما الحياة وعدم الموت ليكون ذلك بمثابة العلة الدافعة لترك التوكل على غيره لأن المتوكل عليه لو كان عرضة للموت فان هذه الوكالة المتكفلة بالحفظ من الأعداء سوف

---

(٤) سورة الفرقان الآية ٥٨ .

تنقطع ، وفيه تعريض بالمشركين الذين ذكر حالا من أحوالهم فى قوله قبل ذلك « ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا » .

وقوله « وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا » وهذه كلمة يراد بها المبالغة ، يقال : كفى بالعلم جمالا كفى بالأدب مالا . وهو بمعنى حسبك ، أى لا تحتاج معه الى غيره لأنه خبير بأحوالهم ، قادر على مكافأتهم ، وذلك وعيد شديد ، كأنه قال : ان أقدمتم على مخالفة أمره كفاكم علمه فى مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة(٥) .

أمر الله رسوله — ﷺ — بأن يبدأ انذار عشيرته الأقربين ، وأمره أن يتبرأ منهم اذا لم يستجيبوا له ، وأمره أن يفوض أمره كله اليه لأنه هو القادر على صرف عداوتهم برحمته له .

وذلك فى قوله : « وتوكل على العزيز الرحيم »(٦) .

وهذا مقام من مقامات التسلية والذى قصد منه تثبيته على ما هو عليه من الاستمرار فى دعوته وتبليغ رسالة ربه .

والمعنى فان عصاك أهل عشيرتك فتبرأ منهم ولما كان التبرؤ يؤذن بحدوث مجافاة وعداوة بينه وبينهم ثبت الله جأش رسوله بأن لا يعبأ بهم وأن يتوكل على ربه فهو كافيه ، كما قال (ومن يتوكل على الله

---

(٥) مفاتيح الغيب جـ ١٢ ص ٧٨ .
(٦) سورة الشعراء الآية ٢١٧ .

فهو حسبه » وعلق التوكل بالاسمين « العزيز الرحيم » وما تبعهما من الوصف بالموصول ، وما ذيل به من الايمان الى أنه يلاحظ قوله ويعلم نيته ، اشارة الى أن التوكل على الله يأتى بما أومأت اليه هذه الصفات ومستتبعاتها بوصف « العزيز الرحيم » للاشارة الى أنه بعزته قادر على عدوه الذى هو أقوى منه ، وأنه برحمته يعصمه منهم(٧) .

وتقديم وصف العزة قيل لأنه : أوفق بمقام التسلى عن المشاق اللاحقة من القوم اليه — ﷺ — وجوز أن يكون ذلك لأن العزة كالعلة المصححة للتوكل والرحمة كالعلة الداعية اليه(٨) .

وهذا أمر بالتوكل من الله لرسوله — ﷺ — وجاءت بعده العلة الداعية اليه وهى كونه — ﷺ — مستمرا فى تمسكه بالحق البين الواضح وهذا يدل على مكانته عند ربه ، وتلمح فيه التسلية والدعوة الى الثبات ، وذلك لأن انصراف الناس عن الحق ربما يجعله فى تردد من الحق الذى هو عليه .

وهذا نجده فى قوله تعالى : « فتوكل على الله انك على الحق المبين »(٩) .

« فتوكل على الله » لترتيب الأمر على ما ذكر من شأونه عز

---

(٧) التحرير والتنوير جـ ١٩ ص ١٣٦ .
(٨) روح المعانى جـ ٩ ص ١٣٦ .
(٩) سورة النمل الآية ٧٩ .

وجل ـ فانها موجبة للتوكل عليه ، وداعية الى الأمر به ـ أى فتوكل على الله الذى هذا شأنه ، فانه موجب على كل أحد أن يتوكل عليه ويفوض جميع أموره اليه .

وقوله « انك على الحق المبين » تعليل صريح للتوكل عليه ـ تعالى ـ بكونه عليه الصلاة والسلام على الحق المبين ، أو الفاصل بينه وبين الباطل ، أو بين المحق والمبطل فان كونه عليه الصلاة والسلام ـ كذلك مما يوجب الوثوق بحفظه ـ تعالى ـ ونصرته وتأييده لا محالة(١٠) .

وقد وقعت جملة « انك على الحق المبين » موقعا لم يخاطب الله ـ تعالى ـ أحدا من رسله بمثله ، فكان ذلك شهادة لرسوله بالعظمة الكاملة المنزهة عن كل نقص ، لما دل عليه حرف « على » من التمكين ، وما دل عليه اسم الحق من معنى جامع لحقائق الأشياء ، وما دل عليه وصف « مبين » من الوضوح والنهوض .

وجىء فى فعل التوكل بعنوان اسم الجلالة ، لأن ذلك الاسم يتضمن معانى الكمال كلها ، ومن أعلاها العدل فى القضاء ، ونصر المحق(١١) .

(١٠) تفسير أبو السعود جـ ٦ ص ٢٩٦ .
(١١) التحرير والتنوير جـ ٢٠ ص ٣٢ ، ٣٤ .

وفى مقام آخر أمر الله النبى ـ ﷺ ـ بالتوكل عليه وذلك تمهيدا لما يساق اليه من أذى القوم وتجريحهم فى سلوك القصد اليه وذبه والانقاص من قدره .

وذلك فى قوله « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا »(١٢) .

« وتوكل على الله » أى فوض جميع أمورك اليه ـ عز وجل ـ «وكفى بالله وكيلا» حافظا موكولا اليه كل الأمور ، والاظهار فى مقام الاضمار للتعظيم . ولتستقل الجملة استقلال المثل(١٣) .

وفى سورة المزمل يأمره ـ ﷺ ـ بأن يتخذ الله وكيلا لأنه وحده هو القادر وذكر العلة الداعية لاختصاصه تعالى بأن يتخذ وكيلا الا وهى قدرته الباهرة حيث من كان مالكا للمشرق والمغرب فهو أهل بأن يحرس السوء والكيد عن عبده ، وذلك فى قوله « رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا »(١٤) .

ووكيل فعيل بمعنى مفعول ، أى موكول اليه وهو لترغيب الأمر وموجبه على اختصاص الألوهية والربوبية به عز وجل(١٥) .

(١٢) سورة الأحزاب الآية ٣ .
(١٣) روح المعانى جـ ٢١ ص ١٤٤ .
(١٤) المزمل آية ٩ .
(١٥) روح المعانى جـ ٢٩ ص ١٣٢ .

جميع المواضع السابقة كان الأمر فيها بالتوكل من قبل الله لرسوله — ﷺ — ولم يرد الأمر بالتوكل بصيغة المفرد لغيره — ﷺ — وفى ذلك اشارة الى أنه — عليه الصلاة والسلام — كان فى أمس الحاجة أن يفوض الأمور كلها الى خالقه .

كما أن تلك الأوامر كان الغرض منها التسلية والتثبيت ، وعدم مجاراة القوم فيما طلبوه منه .

وجميع الصيغ المستعملة فى ذلك كان الأمر فيها بواسطة فعل الأمر ، لأنه أقوى من الصيغ الأخرى الدالة على الأمر ، لانه لا يحتمل الا الخطاب والمواجهة وفيه ما فيه من المؤانسة والقرب .

أما هنا فنجد القرآن يسوق أوامر من قبل الله تعالى لعباده المؤمنين بأن يتوكلوا عليه ويفوضوا الأمور كلها اليه .

فنرى فى مقام يجعل الله التوكل عليه شرطا للايمان وذلك فى قوله « قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين(١٦) .

والأمر بالتوكل من قبل الرجلين يريدان بعد الأخذ بالأسباب الايماء الى عدم الاعتماد عليها لأنها لا تؤثر الا بارادته سبحانه .

(١٦) سورة المائدة الآية ٢٣ .

وبعد أن أمر القوم باتخاذ الأسباب أمرهم بالتوكل على الله والاعتماد على وعده ونصره وخبر رسوله ، ولذلك ذيلا بقولهما « ان كنتم مؤمنين » لأن الشك فى صدق الرسول مبطل للايمان(١٧) .

ونبى الله موسى عليه السلام عندما يخاطب قومه ويأمرهم بالتوكل على الله يجعل التوكل جوابا لشرطين هما الايمان بالله والاستسلام والانقياد له وذلك فى قوله « وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين »(١٨) .

وصاحب روح المعانى ينفى أن يكون هذا من تعليق الحكم بشرطين فيقول « وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين ، بل من تعليق شيئين بشرطين لأنه علق وجوب التوكل المفهوم من الأمر ، وتقديم المتعلق بالايمان فانه المقتضى له ، وعلق نفس التوكل وجوده بالاسلام والاخلاص ... وحاصله ان كنتم آمنتم بالله فيجب عليكم التوكل عليه سبحانه فافعلوه واتصفوا به ان كنتم مستسلمين له تعالى .

وهذا النوع على ما فى الكشف يفيد مبالغة فى ترتب الجزاء على الشرط ، على نحو ان دخلت الدار فأنت طالق ان كنتى زوجتى ، وجعله بعضهم من باب التعليق بشرطين المقتضى لتقديم الشرط الثانى على الأول فى الوجود(١٩) ...

(١٧) التحرير والتنوير ج ٦ ص ١٦٥ .
(١٨) سورة يونس الآية ٨٤ .
(١٩) روح المعانى ج ١١ ص ١٧٠ .

المضارع المقترن بلام الأمر

وهـذه الصيغة من الأمر بالتوكل جاء الأمر بها لصنفين من الناس، الصنف الأول المؤمنين ، والصنف الثانى المتوكلين •

وقد جاءت الصيغتان فى موضع واحد وهما فى هـذا الحـوار والجدال الذى وقع بين الرسل ومن أرسـلوا اليهم فى قوله تعالى : « قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سـبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون » •

جاء الأمر بصـيغة المضارع المقتـرن بلام الأمر وذلك مرتين ، ونلاحظ أن الموضع الأول يختلف عن الثانى حيث كان الأول « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » والثانى وعلى الله فليتوكل المتوكلون والمراد بالأول أى على الله وحـده لا غيره فليفوض المؤمنون أمورهم كلها الى الله وتقديم الجار والمجرور هو الذى أفـاد الحصر ، والرسل يقصـدون أنفسهم أولا لأنهم داخلون فى جملة المؤمنين وفى مقدمتهم •

وما فى قوله « وما لنا » للاستفهام والمراد به التعجب وعدل عن الضمير الى لفظ الجلالة فى قوله « ألا نتوكل على الله » ليحفز الهمم والنشاط والاستلذاذ بذكر اسمه وليـكون علة للتـوكل عليه ، والمراد بالمتوكلين اما المؤمنون المذكورون ، والذين يتوكلون على غيره ، أو من يريد التـوكل •

والشيطان عدو مبين للانسان والعبد فى حاجة لأن يستعين بالله عليه حتى يكون موضعا للحفظ منه ومن غوايته فجاء الأمر بالتوكل فى هـذا المقام الذى بين الله فيـه أنه ينبغى أن يدخل الحـزن دائما على المؤمنـين •

وذلك فى قوله « انما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون »(٢٠).

قبل هـذه الآية ورد نهى المؤمنين عن التناجى بالاثم والعدوان ومعصية الرسول — وأمرهم بالتناجى بالبر والتقوى ، ثم جاء هـذا ليسليهم ويخفف حزنهم لمـا يحدث من تناجى المنافقين بالشر والتجريح واحداث الفتن بين المؤمنين ، فالمؤمنون عندما يعلمون أن ذلك نابع من اتباعهم لوسوسة الشيطان الذى يزين لهم هـذا الشر يهون عليهم ، وبعـد ما عرفهم العلة من تناجى المنافقين طمأنهم بأن هـذا التناجى من قبل المنافقين بالشر لن ينالهم بمكروه الا اذا أراد الله ذلك •

ومن الأسرار البلاغية فى الآية أسلوب القصر الذى صـدرت به الآية والذى يدل على حصر التناجى بالشر كونه من الشيطان واستخدم من بين طرف القصر « انما » لأنهـا تستعمل فى الأمور المعلومة وكان هذا الأمر يجب ألا يغيب عن عقولهم ، وكذلك مجىء النكرة فى سياق النفى الدال على العموم فى قوله « وليس بضـارهم شـيئا » وهذا يؤكد التسلية ويقوى اليقين ، وتقديم الجار والمجرور فى قوله « وعلى

---

(٢٠) سورة المجادلة الآية ١٠ •

الله » يدل على الاختصاص وفيه تحذير من التوكل على غيره ، ووصفه الايمان فيه علة لذلك .

وفى موضع آخر يؤكد الله تعالى هذا المعنى حتى لا يغفل المؤمنون عن التوكل عليه فى كل موطن وخاصة مواطن الخشية من أعداء الله الذين يتربصون بالمؤمنين وتارة يظهرون لهم الكيد ، وتارة يضمرونه .

وذلك فى قوله « الله لا اله الا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون »(٢١) .

قوله « الله لا اله الا هو » بمثابة العلة لما سيذكر بعده فى وجوب التوكل عليه وحده ، وهذا الأسلوب وهو وصفهم بالايمان يحرك الحصر والحزن فى قلوب الكفرة لأنهم يعلمون أنهم على الباطل ، وفيه كذلك تثبيت للمؤمنين حيث أنهم على الحق .

ونرى النظم الكريم يعدل عن الضمير الى الاسم الظاهر وهو لفظ الجلالة لما يشعر به هذا الاسم من العظمة والقدرة الداعية لافراده بالتوكل ، وان كان هذا المعنى يوجد مع الضمير الا أنه مع الاسم الظاهر ، أوضح وأبين وذكر وصف المؤمنين ليدل على كافة المؤمنين فى كل عصر ومصر ، أى أنهم داخلون فى هذا الأمر .

---

(٢١) سورة التغابن الآية ١٣ .

وفى مقام آخر يأتى الأمر بالتوكل من قبل نبى الله يعقوب — عليه السلام — حيث أنه فى قرب نهاية القصة يأمر أبناءه أن يدخلوا من أبواب متفرقة وبين لهم أنه لا يستطيع صرف الضر عنهم وانما الذى يملكه هو التوكل على الله ويأمرهم بالتوكل وان لم يكن هذا الأمر صريحا لهم ، وذلك فى قوله « وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شىء ان الحكم الا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون »(٢٢) .

التوكل فى سياق الخبر

فى الأساليب السابقة جاء الأمر بالتوكل وهو من الأساليب الانشائية ، والعلة فيه ان تلك الأوامر جاءت فى سياقات كانت تتطلب ذلك اللون حيث فى معظمها جاءت بعد الأخذ بالأسباب ، أو ردع الأعداء وتخويفهم .

وتلاحظ معى أن تلك الأوامر وقعت للواحد وقصد به النبى محمد — ﷺ — ابتداءا وأمته تبعا ، ووقعت للجميع وعنى بها المؤمنون ، وجاءت هنا الأساليب الخبرية كذلك فسوف ترى الواحد المخبر عن نفسه وترى الجمع الذى يخبر عن نفسه وكأن تلك الأوامر وجدت طريقها الى النور ودخلت فى حيز التنفيذ ، فالاخبار كأنه استجابة لتلك الأوامر .

---

(٢٢) سورة يوسف الآية ٦٧ .

والتوكل على الله فى الأساليب الخبرية ورد بصيغ مختلفة من حيث الدلالة فقد ورد الفعل الماضى المقترن بتاء الفاعل ، والمقترن بتاء الفاعل وورد الفعل المضارع ، وورد الاسم ، وذلك لاختلاف المقام الذى ورد فيه .

الفعل الماضى

والفعل الماضى جاء بصيغتين احداهما الفعل الماضى المقترن بتاء الفاعل .

فى مقام التعليم واعراض من دعاهم من العرب ، أمر الله رسوله ـ ﷺ ـ أن يعرفهم عند التولى أن الله كافيه وأنه عليه وحده قد فوضت أمرى .

وذلك فى قوله « فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم »(٢٣) .

وبعد التفريع التفت الكلام من خطاب العرب الى خطاب النبى ـ ﷺ ـ بما كان مقتضى الظاهر أن يخاطبوا هم به اعتمادا على قرينة حرف التفريع فقيل له « فان تولوا فقل حسبى الله » والتقدير فان توليتم عنه فحسبه الله ، وقل حسبى الله فجىء بهذا النظم البديع الايجاز مع ما فيه من براعة الايماء الى عدم تأهلهم لخطاب الله ، على

(٢٣) سورة التوبة الآية ١٢٩ .

تقدير حالة توليهم والتوكل : التفويض ، وهو مبالغة فى وكل ، وهذه الآية تفيد التنويه بهذه الكلمة المباركة ، لأنه أمر بأن يقول هذه الكلمة المباركة بعينها ، ولم يؤمر بمجرد التوكل كما أمر فى قوله « فتوكل على الله انك على الحق المبين » ولا أخبر بأن الله حسبه مجرد اخبار كما فى قوله « فان حسبك الله »(٢٤) .

وهذا التعبير وأمثاله يدل على فائدتين الأولى أنه يلقى الرعب فى قلوب المعرضين لأن استعانة الضعيف بالقوى فيه ردع وزجر للخصم فما بالك اذا كان الذى تفوض الأمور اليه هو رب العالمين ، والثانية ثبات المتوكل على ما هو عليه وعدم ميله الى ما عليه الأعداء فهو أسلوب ميأس لرجائهم فى ميله عما هو عليه .

والتعبير بالماضى لا يفهم منه حصول التوكل منه ثم انقطاعه فى المستقبل ، وانما يقصد به حصوله فيما مضى وفيما يستقبل من الزمان وفيما يستحدث من الأمور .

وفى مقام التسلية والتعليم جاء قوله « كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلوا عليهم الذى أوحينا اليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب »(٢٥) .

واسم الاشارة فى قوله « كذلك » أريد به التشبيه أى أرسلناك ارسالا كما أرسلنا الى الأمم التى سبقت أمتك ، ثم ذكر العلة التى من

(٢٤) انظر التحرير والتنوير ج ١١ ص ٧٤ .
(٢٥) سورة الرعد الآية ٣٠ .

أجلها كان الارسال وهى نلارة ما أوحاه الله اليه من القرآن ، ثم ذكر حالهم التى كانوا عليها وقت البعثة وهى كفرهم بالرحمن والتعبير بالفعل المضارع يدل على حدوث الكفر وتجدده وفى ذلك مذمة لهم ، وقال « بالرحمن ولم يقل بى زيادة فى تكبيتهم لأن رحمة ربهم تستوجب ايمانهم ثم جاء مقام التعليم وكيفية المحاورة اذا ما استمروا على هذه الحالة التى وجدهم عليها بأن يقول « هو ربى لا اله الا هو » وفى قوله هذا ما يشعره بالأمان ويشعرهم بأنه فى غنى عن ايمانهم ، واضافة الرب اليه يفهم منه ذلك ، ثم علمه أن يؤكد هذا المعنى بقوله « عليه توكلت واليه متاب » ولا يخفى ما فيه من تقديم الجار والمجرور لافادة التخصيص وليكون مترتبا على ما سبق ذكره أى معلولا للعلة السابقة ، فمن اعترفت له بالربوبية وأيقنت بوحدانيته هو جدير بأن أفوض أموري اليه وحده وأن يكون متابى اليه وحده •

والخلاف فى أمور العقيدة والبعث كان موجودا بين المؤمنين والكفار وهذا الجدل الذى لا ينقطع من جانب الكفار كل هذا من شأنه يدخل الحزن فى قلبه — ﷺ — فأراد الله تعالى أن يسليه فأظهر له أن الحكم بينه وبينهم يرجع الى الله وهذا تخويف لهم واطمئنان له • وذلك فى قوله « وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه الى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت واليه أنيب » •

وقوله « من شىء » يفيد العموم وهو غاية فى الايجاز لأنه يشتمل على كل قضايا الخلاف فى شأنه تعالى وكتابه ورسوله والبعث ، وغير ذلك ، وقوله « فحكمه الى الله » ليس معناه أنه لا يعرف

صاحب الحق من الفريقين ولكنه من باب الانصاف فى الحجاج وعدم اظهار الميل •

ثم انتقل النظم الحكيم ليعلمه كيف يحاورهم ويعرفهم بأن الله المتصف بالكمال والجلال هو ربى واستخدم لذلك اسم الاشارة الخاص بالبعيد ليفيد التعظيم ، وكذلك ليفيد تميزه أكمل تميز ، وأضافه الى نفسه ليدل بذلك على اعتزازه به وركونه اليه ومن ثبتت له العظمة والكبرياء وقد أرسلنى اليكم فيجب على أن أداوم على التوكل عليه وحده ، ثم استخدم الفعل المضارع فى قوله « واليه أنيب » ليفيد استمرار التوكل فيما مضى وفيما يستقبل من الزمان ، وتقديم الجار والمجرور فى التوكل والأنابة دليل على الاختصاص أى لا يكون التوكل الا عليه والانابة الا اليه •

ونبى الله هود عليه السلام أمر قومه بالاستغفار والتوبة ، ثم ذكر لهم ثمرة ذلك وهى العود عليهم بالرخاء فى الرزق والصحة فى الأبدان ، لكنهم تكبروا وأعرضوا عن الأستجابة لما هو فى صالحهم ، وزعموا أن آلهتهم قد مسته بسوء فأصبح يهذى ، وبعد هذا التجنى منهم عليه وبعد زعمهم الباطل ، يشهد الله ، ويشهدهم انه برىء من شركهم •

ثم بين لهم أنه متوكل على الله فى دفع كيدهم ويؤكد توكله بـ « ان » وعبر بالماضى ليكون مناسبا للمقام ثم يذكر العلة التى جعلته يتوكل عليه وحده وذلك فى قوله « ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها » واستعمال الأخذ بالناصية فى القدرة مجاز أو كناية •

وفى روح المعانى « وفى الكشف » : أن فى قوله « انى توكلت » الآية من اللطائف وما يبهرك تأمله من حسن التعليل ، وما يعطيه أن من توكل عليه لم يبال بهول ما ناله ، ثم التدرج الى تعكيس التخويف بقوله : « ربى وربكم » فكيف يصاب من لزم سدة العبودية ، ويندرج من تولى ، مع ما يعطيه من وجوب التوكل عليه — سبحانه — اذا كان كذلك ، وترشيحه بقوله « ما من دابة » الى تمام التمثيل ، فانه فى الاقتدار على المعرض أظهر منه فى الرافة على المقبل خلاف الصفة الأولى ، وما فيه من تصوير ربوبيته واقتداره — تعالى — وتصوير ذل المعبودين بين يدى قهره .

وفى قوله « ربى » من غير اعادة « ربكم » نكتة سرية بعد اختصار المعنى عن الحشو ما يدل على زيادة اختصاصه به ، وأنه رب الكل استحقاقا ، وربه دونهم تشريفا وارفاقا » (٢٦) .

وصيغة الفعل الماضى المسند الى تاء الفاعل قد أخذت نصيبا كبيرا وكلها كانت من النبى محمد — ﷺ — الا موضعا واحدا كانت من نبى الله هود ، وجاءت تلك الصيغ فى مقام التعليم والتسلية ، ودفع كيد الأعداء والاستعانة عليهم بالله وحده .

وصيغة الفعل الماضى المسند الى ناء المتكلمين فقد قل وروده فى كتاب الله — تعالى — ويمكن أن يكون السبب فى ذلك هو ان توكل

(٢٦) روح المعانى .

النبى — ﷺ — على ربه تعليم لأمته لأنهم اسوة يأتسى به فى أقواله وأفعاله .

جاء التوكل على الله من نبى الله ابراهيم — عليه السلام — ومن آمن معه ، وهذا التوكل بعد اعلان البراءة من أهل الكفر والشرك من قومهم والبراءة من الأصنام التى يعبدونها من دون الله ، واظهار العداوة المشار الى سببها قبل الافصاح عنها ثم جاء بعد ذلك اعلان توكلهم على الله وحده ليدفع عنهم وحده أذى هؤلاء الذين لا يقدر على صرف ضرهم الا هو ، وتقديم الجار والمجرور يفيد حصر التوكل عليه والانابة والمصير اليه ، وهذا الأسلوب الصادر من المؤمن يقوى يقينه ويزرع الخوف فى قلوب أعدائه ، وذلك فى قوله « لقد كان لكم اسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برءاؤ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده الا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير » (٢٧) .

وفى مقام آخر بعد حوار طويل علم فيه رسول الله — ﷺ — أن يذكر هؤلاء الأعداء أن يتذكروا نعم الله عليهم سواء كانت بدفع البلاء أو جلب المنافع ، وفعل الأمر « قل » الصادر من الله — لرسوله ﷺ — والمتكرر فى جمل متقاربة يبرهن على رعاية الله لرسوله وعدم

(٢٧) سورة الممتحنة الآية ٤ .

تركه والتخلى عنه فى كل الأحوال والأوقات ولم يكله الى نفسه حتى فى بيان العلل الموجبة والداعية لاتباعه والتصديق به •

وذلك فى قوله « قل أرأيتم أن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم * قل هو الرحمن آمنـا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين * قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين »(٢٨) •

وهـذا أمر بالتوكل مدلول عليه بلفظ « قل » وفيه ابراز للحالة التى هو عليها والخطاب للمفرد لكن الاخبار بالايمان والتوكل جاء بلفظ الجمع ليعلم أن من آمن معه من أصحابه يدخلون فى الوصف بالايمان وحصول التوكل منه كذلك ، فهو تعليم له — ﷺ — وتعليم لأصحابه •

وهـذه الآيات نراها بعد التذكير بالنعم تسلك مسلك التهـديد ، وهـذا التهديد يشمل مصيرهم المشئوم يوم البعث ، ويشمل التهديد بانقطاع النعم المتواصلة فى الدنيا وعلى رأسها نعمة المـاء الذى عليه قوام حياتهم •

(٢٨) سورة الملك الآيات ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ •

الفعل المضـارع

والتعبير بالفعل المضارع له خصائصه المعلومة من الوضع اللغوى، مثل افادة حدوث الفعل فى الحال والاستقبال ، وافادة الاستمرار ، واذا انضـم الفعل المـاضى مع الفعل المضـارع اجتمعت خصـائص الفعلين من حصول الفعل فى المـاضى والحال والاستقبال ، ليكون فى ذلك اشارة للعبد بأن يكون مداوما وملازما للتـوكل على الله وتفويض الأمور كلها اليـه فى جميع الأزمنة والأمكنة •

وجاء التعبير عن التوكل بالفعل المضـارع بصيغتين الأولى كان المضارع فعلا للشرط وهـذا الشرط مقرونا بالجزاء ، أو مقرونا بما يتضمن الجزاء ، وهـذا فيه حث للعبد على التفويض لأن ذكر الجزاء من المرغبات التى تحفز الهمم وتقوى العزم وتجدد الرغبة فى الفعل •

وفى مقام من المقامات نرى القرآن الكريم يقص علينا جانبا من صلف أهل الكفر ومكابرتهم فى تشكيك أهل الايمان فيما هم عليـه من الحق واتباع الهدى ، وبعـد ما حكى مقالتهم بين ما ينبغى أن يكون عليـه أهل الايمان مع ذكر المشجع على ذلك والدافع اليه ، وذلك فى قوله « اذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم »(٢٩) •

والقول من الكفار حقيقة لأنهم كانوا يجهرون به ، وأما الذين فى

(٢٩) سورة الأنفال الآية ٤٩ •

قلوبهم مرض وهم المنافقون فالقول منهم مجاز لأن هـذا المعنى لم يجبروا به بل حديث فى أنفسهم وقوله « مرض » هو مجاز حيث شبه سوء اعتقادهم بالمرض بجامع الضرر فى كل ، والمشار اليـه فى قوله « هؤلاء » هم المؤمنون لأن ذلك كان يوم بدر ، وان لم يجر لهم ذكر لأنهم معروفون لديهم ، وهكذا يكون الحديث عنهم .

ويقول صاحب التحـرير والتنوير عن جواب الشرط وجعل قوله « فان الله عزيز حكيم » جوابا للشرط باعتبار لازمه وهو عزة المتوكل على الله والفائه منجيا من مضيق أمره ، فهو كناية عن الجواب ، وهو كثير الوقوع فى القرآن ، وعليه قول زهير :

من يلقـى يوما على عـلاته هـرما
يلقى السماحة فيـه والندى خلقـا

أى : ينل من كرمه ولا يتخلف ذلك عنه فى حال من الأحوال .

ومنه قول ربيع بن زياد :

من كان مسرورا بمقتـل مالـك
فليـأت نسوتنا بوجـه نهـار
يجـد النسـاء حواسرا يندبنـه
باللـيل قبـل تبلج الأسـفار

أى : من كان مسرورا بمقتله فسروره لا يدوم الا بعض يوم ثم يحزنه أخذ الثأر ، اما من ذلك المسرور ان كان هو القاتل ، أو من أحد

قومه وذلك يحزن قومه » (٣٠) .

وفى مقام آخر بعد ما ذكر الله تنظيم العلاقة بين الزوجين ، وبين الحالة التى يكون فيها العزم على الفراق ، وبين ما يجب أن يكون عليه الزوج من عدم اخراج الزوجة من مسكن الزوج أثناء العدة ، وكل هذه الأمور تحتاج من الزوج أن يكون متقيا الله ثم بعد الأخـذ بالأسـباب الظاهرة عليه أن يفوض الأمـور الى الله لأنـه لا يعلم الأصلح له من مفارقة الزوجة أو البقاء معها الا هو سبحانه .

وذلك فى قوله « ومن يتق الله يجعل له مخـرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا » (٣١) .

وقال صاحب « غرائب القرآن » ثم حث فى التوكل بثلاث جمل متقاربة الخطى :

الأولى : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » لأنه المصدر الحقيقى القادر على كل شىء ، الغنى عن كل شىء ، الجواد بكل شىء اذا فوض العبد الضعيف أمره اليه لا يهمله البتة .

الثانية : « ان الله بالغ أمره » أى يبلغ كل أمر يريده .

---

(٣٠) التحرير والتنوير ج ١٠ ص ٣٨ ـ ٣٩ .
(٣١) سورة الطلاق الآية ٣ .

الثالثة « قد جعل الله لكل شيء قدرا » أى وقتا ومقدارا ، وهما ان الجملتان كل منهما بيان لوجوب التوكل عليه ، لأنه اذا علم كونه قادرا على كل شيء ، وعلم أنه قد بين وعين لكل شيء حدا ومقدارا لم يبق الا التسليم والتفويض(٣٢) .

وفى مقام التعليم ، والمحاورة حيث يأمر الله رسوله — ﷺ — أن يقول لهؤلاء الذين أعرضوا عن الايمان ان أراد الله أن يصيبنى بضر فهل يقدر احد منكم على ازالته أو كشف هذا الضر ، واذا أرادنى برحمة هل تستطيع آلهتكم ان تمسك هذه الرحمة أو تمنعها ، ثم أمر رسوله — ﷺ — أن يقول لهم « يكفى أن الله بقدرته وحفظه معى فعليه وحده يفوض المؤمن به أموره اليه ، وأنا من جملتهم .

وذلك فى قوله « قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون »(٣٣) .

وفى التحرير والتنوير : لما ألهمهم الله بهذه الحجة الحجر أمر رسوله — ﷺ — أن يقول « حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون » وانما أعيد الأمر بالقول ولم ينتظم « حسبى الله » فى جملة الأمر الأول ، لأن هذا المأمور بأن يقوله ليس المقصود توجيهه الى المشركين ، ان

(٣٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج ٧٢ — ٧٣ .
(٣٣) سورة الزمر الآية ٣٨ .

فيما سبقه مقتنعا من قلة الاكتراث بأصنامهم ، وانما المقصود أن يكون هذا القول شعار النبى — ﷺ — فى جميع شئونه ، وفيه حظ للمؤمنين معه ، حاصل من قوله « عليه يتوكل المتوكلون » وحذف المتعلق فى هذه الجملة لعموم المتعلقات ، أى : حسبى الله من كل شيء وفى كل حال . ، والمراد بقوله — أى قوله « حسبى الله » الى آخره — اعتقاده ، ثم تذكره ، ثم الاعلان به لتعليم المسلمين ، واغاظة المشركين(٣٤) .

وورد التوكل بلفظ الفعل المضارع المسند الى واو الجماعة ، وذلك عند ذكر أوصاف المؤمنين فقد جاء عطف هذا الوصف على الصبر ، وعلى الايمان وغير ذلك من الأوصاف التى يجب على المؤمنين أن يتحلوا بها .

ومن تلك المواقع قوله تعالى : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون »(٣٥) .

نفهم من أسلوب القصر الذى صدرت به الآية أن الذى لا يوجل قلبه عند ذكر الله ولا يزداد ايمانه عند تلاوة الآيات ولا يتوكل على ربه فى كل أموره فهو ليس بمؤمن ، ولكن هناك ما يدل على أن التقصير فى فعل الواجبات لا ينافى الايمان ، وانما يكون ايمانه غير كاملا

(٣٤) انظر التحرير التنوير ج ٢٤ ص ١٨ .
(٣٥) سورة الأنفال الآية ٢ .

والمخرج من هـذا أن نقول ان القصر هنا ادعائى وليس حقيقة والمعنى المؤمنون الكاملون فى الايمان هم المتصفون بهذه الأوصاف •

ونرى فى الآية ايجـازا يشـير الى عموم ذكر الله سـواء كان باللسان أو بالقلب أو بالفعل بأسمائه أو بصفاته أو بعقابه أو بمحارمه أو بتخويفه وتحذيره أو بغير ذلك ولو حـددت الآية نوعا من هـذه الأنواع لم يندرج الباقى فيـه وهو غير مراد •

والوصف الثالث هـو التـوكل على الله ومن الأسرار البـلاغية المصاحبة لهـذا الوصف الفعل المضـارع الدال على تكرار ذلك منهم وعدم انقطاعه •

وتقـديم المجرور فى قوله « وعلى ربهم يتوكلون » اما لرعاية الفاصلة ، فهو من مقتضيات الفصاحة ، مع ما فيه من الأهتمام باسـم الله ، واما للتعريض بالمشركين لأنهم يتوكلون على اعانة الأصـنام ، قال تعالى : « واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا » فيـكون الكلام مدحا للمؤمنين ، وتعريضا بذم المشركين ، ثم فيـه تحذير من أن تبقى فى نفوس المؤمنـين آثار من التعلق بما نهـوا عن التعلق به لتوهمهم أنهم اذا فوتوه فقد أضاعوا خيرا من الدنيا(٣٦) •

وفى أوقات الشـدائد والملمات يحتاج المؤمن الى أن يتحلى

---

(٣٦) التحرير والتنوير جـ ٩ ص ٢٩٩ •

بصفتى الصبر والتوكل وذلك كما جاء فى قوله « الذين صـبروا وعلى ربهم يتوكلون » •

هـذه الآية جاءت بعـد الحديث عن المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم بغير حق ، وبعد ما أعده الله لهم من الأجر والمثوبة فى الآخرة ، بين ما ينبغى أن يكونوا عليه من الصبر الجميل على الظلم الذى وقع عليهم من أعدائهم ، والتعبير بالصبر على مفارقة الأهل والبـلد الذى عاشوا فيه وكان مسقط رأس بعضهم •

« وعلى ربهم يتوكلون » منقطعين اليه معرضين عمن سـواه ، مفوضين اليه الأمر كله ، كما يفيده حذف متعلق التوكل ، وقيل تقديم الجار والمجرور المؤذن بالحصر ، وكونه لرعاية الفواصل غير متعـين • وصـيغة الاسـتقبال للاسـتمرار ، أو لاستحضار تلك الصـورة البديعـة(٣٧) •

ونظيره قوله فى موضع آخر « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوأنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون »(٣٨) •

وذكرت الآية هنا من أوصـاف المؤمنين الصبر على أذى القـوم والتوكل على الله عند الشعور بالقلة أو الضعف وهذان الوصفان ذكرا بعـد بيان الأجر والثواب وهو دخول الجنة ليكونا علة وسببا فى ذلك •

---

(٣٧) روح المعانى جـ ١٤ ص ١٤٦ •
(٣٨) العنكبوت الآيتان ٥٨ ـ ٥٩ •

ومن الأسرار البلاغية التعبير بالموصول للايماء الى وجه بنـــاء الخبر ــ ، أى نبوأهم غرفا لأجل ايمانهم وعملهم الصالح ... وجملة « نعم أجـر العاملين » انشاء ثناء وتعجيب على الأجر الذى أعطوه ، فلذلك قطعت عن العطف ، وقوله « الذين صبروا » خبر مبتدأ محذوف اتباعا للاستعمال والتقدير : هم الذين صبروا ، والمراد صبرهم على اقامة الدين ، وتحمل أذى المشركين ، وقـد علموا أنهم لا قـوة لهم فتوكلوا على ربهم ، ولم يعبـأوا بقطيعة قومهم ، ولا بحـرمانهم من أموالهم ، ثم فارقوا أوطانهم فرارا بدينهم من الفتن • وتقديم المجرور على متعلقه فى قوله « وعلى ربهم يتوكلون » للاهتمام(٣٩) •

وبعد ما طلب الله تعالى من الذى يعزم على قـراءة القـرآن أن يستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، بين أن الشيطان له سلطان على من اتصف بصفة الايمان وبصفة التوكل على الله ، وذلك فى قوله « فـاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون »(٤٠) •

وجملة « على ربهم يتوكلون » صفة ثانية للموصول ؛ وقـدم المجرور على الفعل للقصر ، أى : لا يتوكلون الا على ربهم ، وجعل فعلها مضارعا لافادة تجـدد التوكل واستمراره ، فنفى سلطان الشيطان مشروط بالأمرين : الايمان والتوكل(٤١) •

---

(٣٩) التحرير والتنوير جـ ٢١ ص ٢٣ ــ ٢٤ •
(٤٠) سورة النحل الآيتان ٩٨ ــ ٩٩ •
(٤١) التحرير والتنوير جـ ١٤ ص ٢٧٨ •

وفى موضع آخر يذكرنا ربنـــا بأسلوب الخطـاب أن ما يعطى للمشركين أو بعض المؤمنين فهو من متاع الدنيا الزائل والذى يدخره الله هو خير وأبقى للذين يتصفون بوصفى الايمان والتوكل .

وذلك فى قوله « فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون »(٤٢) •

وفيه تعريض بالمشركين لأنهم لا يتوكلون على الله وانما يتوكلون على آلهتهم التى لا يتأتى منها النفع ولا الضر ، وفيه كذلك حث للمؤمنين أن يستمروا على تفويض الأمور كلها الى الله وهو مستفاد من التعبير بالمضـارع •

وأما الفعل المضارع المبدوء بالهمز فورد فى لفظـة هى المفسرة لمعنى التوكل وهو التفويض ، وذلك صـادر من النبى ــ ﷺ ــ عندما يئس من ايمان القوم فخـاطبهم خطـاب المنصف وذلـك فى قوله « فستذكرون ما أقول لكم وافوض أمـرى الى الله ان الله بصـير بالعبـاد »(٤٣) •

---

(٤٢) سورة الشورى الآية ٣٦ •
(٤٣) سورة غافر الآية ٤٤ •

الوكيـــل

وفى المباحث السابقة رأينـا مجـىء التوكل فى صـيغة الفعل المـاضى ، والفعل المضارع وذلك لاختـلاف الغرض والمقام ومعظمها ورد فى مقام التعليم للرسول – ﷺ – وأمته •

وقد جاء التوكل بصيغة الاسـم فى القرآن الكريم وهى لفـظ الـوكل ••

قال الراغب : والوكيل فعيل بمعنى المفعول ، قال تعالى : « وكفى بالله وكيلا » أى : كفى به أن يتولى أمرك ، ويتوكل لك ••• وربما فسر الوكيل بالكفيل والوكيل أعم لأن كل كفيل وكيل ، وليس كل وكيـل كفيـــلا(٤٤) •

وقد ذكر مقاتل بن سليمان ان الوكيل جاء فى القرآن على أربعة أوجـــه :

فوجه منها وكيل يعنى حرزا ، فذلك قول الله فى النساء « فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أمن يكون عليهم وكيـلا »(٤٥) • يعنى حـرزا ومانعا ، وقال فى بنى اسرائيل : « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا »(٤٦) يعنى حرزا ومانعا لعباده الموحدين •

---

(٤٤) المفردات فى غريب القرآن ص ٥٣١ ـ ٥٣٢ •
(٤٥) النسـاء ١٠٩ •
(٤٦) الاسراء الآية ٦٥ •

والوجه الثانى : وكيل يعنى رب وذلك قوله فى المزمل « فاتخذه وكيـلا »(٤٧) يعنى ربا •

والوجه الثالث : وكيل يعنى مسيطر ، فذلك قـوله فى الأنعـام « وما أنت عليهم بوكيل »(٤٨) يعنى بمسيطر •

وقال أيضا فى الأنعام « وكذب به قومك وهو الحـق قل لست عليكم بوكيل »(٤٩) •••

والوجه الرابع : وكيل يعنى الشهيد فذلك قوله فى النساء « ولله ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا »(٥٠) يعنى شهيدا أن من فيها عنـده •••

وكقول موسى فى القصص : « والله على ما نقول وكيل »(٥١) يعنى شهيدا(٥٢) •

وهـذا مثال أبين به ما تكتنفه هـذه اللفظة من الأسرار البلاغية

---

(٤٧) سورة المزمل آية ٩ •
(٤٨) الأنعـام ١٠٧ •
(٤٩) الأنعـام ٦٦ •
(٥٠) سورة النساء الآية ١٣٢ •
(٥١) القصص ٢٨ •
(٥٢) الأشباه والنظائر لمقاتل ص ١٤٤ ـ ١٤٥ باختصار •

وذلك فى مقام يحتاج فيه القائل الى أن يعتز بالله تخويفا لأعدائه وطلبا للعون من مالك القوى والقدر وذلك عندما جاء أهل الكفر من قريش يحذرون المؤمنين ويخوفونهم من هذه القوة التى اجتمعت على نصرة الباطل فقوبل هذا التخويف من قبل الكفرة بكلام من قبل المؤمنين يثبط همم الكفار ويخلق اليأس فيهم ، ويشد أذر المؤمنين ويثبت أقدامهم •

وذلك فى قوله تعالى : « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم »(٥٣) •

وحذف المفعول فى قوله « جمعوا لكم » يفيد العموم لأن مقصدهم القاء الرعب وهو متحقق بهذا لأنه يشمل جمع الأحلاف وجمع السلاح ، وجمع القلوب وغير ذلك مما يحتمله اللفظ من المعانى •

وقولهم « حسبنا الله ونعم الوكيل » كلمة لعلهم ألهموها ، أو تلقوها عن النبى — ﷺ — وحسب أى كاف ، وهو اسم جامد بمعنى الوصف ليس له فعل ••• والوكيل فعيل بمعنى مفعول ، أى موكل اليه ، يقال وكل حاجته الى فلان اذا اعتمد عليه فى قضائها ، وفوض اليه تحصيلها ، ويقال للذى لا يستطيع القيام بشئونه بنفسه : رجل وكل — بفتحتين — أى كثير الاعتماد على غيره ، فالوكيل هو القائم

---

(٥٣) سورة آل عمران الآيتان ١٣٧ — ١٧٤ •

بشأن من وكله ، وهذا القيام بشأن الموكل يختلف باختلاف الأحوال الموكل فيها ، وبذلك الاختلاف يختلف معنى الوكيل(٥٤) وقد سبق ذكره عن مقاتل •

وفى مقام آخر بعدما بين الله تعالى اغواء الشيطان لابن آدم ، وبين أن جميع وعوده غرور وكذب وخداع ثم خاطب الشيطان أو الرسول — ﷺ — بأن عباده لا يستطيع الشيطان أن يغويهم أو يضلهم وذلك لأن الله حافظهم وراعيهم ، وذلك فى قوله « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا » واضافة العباد الى الله تفيد تعظيمهم وتشريفهم ، وذلك لطاعتهم واخلاصهم استحقوا أن يكونوا أهلا لهذه المعية المتمثلة فى اللفظ والمعنى ، وجاء التوكيد مع عدم انكار الخصم لذلك ليدلل به على مزيد الاعتناء والاهتمام •

والخطاب هنا قيل للشيطان كما فى الجملة السابقة ، ففى التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن المالكية المطلقة ، والتصرف الكلى مع الاضافة الى ضميره اشعار بكيفية كفايته لهم وحمايته اياهم وقيل للنبى — عليه الصلاة والصلام — ، أو للانسان(٥٥) •

---

(٥٤) التحرير والتنوير ج ٤ ص ١٧٠ •

(٥٥) روح المعانى ج ١٥ ص ١١٣ •

وبعـــد

فتلك لمحة بلاغية مما ذخر به الكتاب الكريم ظهرت به فى صورة مشرقة وضـاءة ، تدل على اعجاز القرآن بحسن نظمه ودقة تراكيبه ، وجمال أسلوبه ، وتأثيره فى نفوس السامعين الى هذا الحد الذى نقل الينا تلك الصلة الوثيقة بين العبد وربه ، وبين لنا حاجة العباد الى الله بعـد أخذهم بالأسباب •

وهـذه الصورة المشرقة ظهرت كذلك فى تعليم الله لرسـوله ـ ﷺ ـ بأن يقول عنـد الملمات والشدائد مثل اعراض القوم عنـه ، أو تصديهم له وادعوته ولمن آمن معه : « توكلت على الله » أو « أفوض أمرى الى الله » أو « حسبى الله ونعم الوكيل » •

وظهرت كذلك فى الاخبـار عن المؤمنين الذين يتسلحون بهـذا السلاح القوى وهو تفويض الأمور الى الله والاستعانة به فى دفـع البلاء وكشف الكرب وازالة الهم •

ورأينا النتائج العاجلة التى تحققت فى بعض المقامات وذلك مثل قوله « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » •

وقد وقفنا على العديد من الأسرار البلاغية التى صحبت الأمر بالتوكل والاخبار عنه ، مثل تقـديم المجـرور ، المفيـد للقصر ، أو الاهتمـام ، أو رعـاية الفاصـلة والتعبـير بالفعل المضـارع ، وما يفيده من استمرار المتوكل وعدم انقطاعه ، وغير ذلك من الأسرار التى شاعت فى تلك السياقات التى جاء فيها التوكل على الله فسبحان من هـذا كلامه •

المراجـــع

١ ــ القرآن الكريم •

٢ ــ الايضاح للخطيب القذوينى •

٣ ــ الاشباه والنظائر فى القرآن الكريم تأليف سليمان بن مقـاتل ١٥٠هـ تحقيق الدكتور عبد الله محمود شحاته ط الهيئة المصرية العامة لكتاب ١٩٩٤م • مصر •

٤ ــ الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ط الهيئة العامة للكتاب مصر

٥ ــ ارشاد الراغبين فى الكشف عن آى القرآن المبين •
محمد منير الدمشقى ط عالم الكتاب بيروت الثانية ١٩٨٣م •

٦ ــ البرهان فى علوم القرآن •

٧ ــ تفسير أبو السعود ط دار احياء التراث العربى بيروت ١٩٩٠م•

٨ ــ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ط الدار التونسية للنشر •

٩ ــ الدر المصون فى علوم الكتـاب المكنون للسمين الحلبى ط دار الكتب العلمية بيروت الأولى ١٩٩٤م •

١٠ ــ روح المعانى للألوسى دار الفكر العربى ١٩٨٧م •

١١ ــ غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى ٧٣٨هـ •
مطبعة مصطفى الحلبى مصر طبعة أولى ١٩٧٠م •

١٢ ــ الكشاف للزمخشرى دار الفكر ببيروت •

١٣ ــ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقى •

١٤ ــ المعجم الموضوعى لآيات القرآن الكريم تأليف صبحى عبد الرؤف الناشر دار الفضيلة مصر •

١٥ ــ مجمع البيان للطبرسى ــ دار المعرفة بيروت ١٩٨٦م •

١٦ ــ مفاتيح الغيب فخر الدين الرازى دار الغد العربى ١٩٩١م •